IJSSP

المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد الخامس – العدد الثالث – البحث العاشر (ص: 237 - 250)
15 – حزيران – 2020 م

www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

[الإنترنت، مواقع التواصل الاجتماعي ومبدأ المراقبة: ورقة تحليلية نقدية للسياق الرقمي العالمي]

[الباحث: رضا اليزيدي]

[طالب دكتوراه: التواصل الرقمي، مختبر التواصل وتقنيات التعبير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس، فاس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، المغرب] 2020م

ملخص الدراسة:

في مجتمعنا المعاصر الرقمي، تبدو الرغبة في المراقبة قوية جدا وجامحة، حيث ترغب جميع أنواع الشركات والمنظمات والمؤسسات في تخزين بيانات عن أعضائها أو عملائها وما إلى ذلك. ففي أعقاب تكنولوجيات المراقبة الجديدة والقلق بشأن آثارها على الفرد والمجتمع ككل، أصبحت دراسات المراقبة مجالا واسعا من مجالات البحث، حيث قدمت فكرة البانوبتيكون Panopticon إطارًا نظريا ومجازيًا يمكن من خلاله مناقشة المراقبة في مجموعة واسعة من السياقات، الأمر الذي اعتمدنا عليه بدورنا في تحليلنا لشبكة الأنترنيت ومواقع التواصل الاجتماعي والآثار الرقمية.

الكلمات المفتاحية: الأنترنيت، مواقع التواصل الاجتماعي، البانوبتيكون، المراقبة، الأثار الرقمية، التواصل الرقمي.

Abstract :

In the contemporary digital society, the desire to survey is very strong and unbridled, as all kinds of companies, organizations and institutions want to collect data on their members or customers, etc. In the wave of new surveillance technologies and their effects on the individual and society as a whole, the study of surveillance has become a vast field of research, as the idea of panopticon has provided a theoretical and metaphorical frame through which observation can be discussed in a wide range of contexts, which we have used in our analysis of the Internet, social media and digital traces.

Keywords : internet, social media, panopticon, surveillance, digital traces, digital communication.

مقدمة الدراسة:

إن التحول الذي عرفه الأنترنيت 2.0 يتميز بخاصية مهمة تتمثل في مشاركة رواد الأنترنيت في صناعة المحتوى وإنشاء العلاقات فيما بينهم، ففي سنة 2005 وبعدما كانت المواقع الإلكترونية العشرة، من بينها مواقع البيع والتجارة الإلكترونية، تحتل الصدارة على مستوى عدد الزوار مثل eBay, Amazon, Microsoft, AOL فإنها اختفت من التصنيف ستة 2008 لحساب كل من Youtube, Myspace, Facebook, Hi5, Wikipédia.. وأخرى، هذا التحول على مستوى الويب كان ملحوظا بشكل كبير.(Cardon, 2011, P 141)

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد الخامس – العدد الثالث – البحث العاشر (ص: 237 - 250)
15 – حزيران – 2020 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

إذا كانت هناك مجموعة من العناصر التي تستطيع تفسير هذا النجاح، إن صح التعبير، لمواقع التواصل الاجتماعي، فإن هذا يرجع حسب دومينيك كاردون Dominique cardon إلى الطريقة التي من خلالها يقوم الأفراد بالتعبير عن أنفسهم وإعادة تشكيل اجتماعيتهم مستفيدين بذلك من الممارسات الجديدة في عرض الذات. (Cardon, 2011, P 141) فقد حولت الشبكات الاجتماعية الفضاء الواسع للويب إلى فضاء مألوف وقابل للتبحر ضمنه. (Idem, P 142)

يقدم مستخدمو مواقع التواصل الاجتماعي هويتهم بشكل مختلف. في البداية، أي عند ظهور هذه الأخيرة، كانوا يعرضون حياتهم اليومية ويستعرضون شخصياتهم بشكل أقل مقارنة باهتماماتهم الشخصية وأذواقهم الخاصة. لكن، في قتنا الراهن أصبح الأمر عكس ذلك، فكل شيء يُعرض على هذه المنصات والقليل من الأشخاص من يحتفظ بحياته الخاصة بعيدا عن الأنظار، الأنظار الرقمية. إن توسيع مجال رؤية الأشخاص على مواقع التواصل الاجتماعي يستفيد من الطبيعة الهجينة للشبكات الاجتماعية المتمثلة في شبكة الأصدقاء بشكل مباشر والشبكات ذات الصبغة الموضوعية كالمجموعات (les groupes) والأوسمة (les tags) والإشارات المرجعية للأصدقاء (les amis-bookmarks). مما يعطي هذه الفضاءات العلائقية طابعًا غير متجانس للغاية ويفتح الباب أمام طرق متنوعة من المقابلات ومن التبحر الرقمي. (Cardon, 2011, P 144)

ومن أجل توسيع مجال الرؤية، يجب على مستخدمي مواقع التواصل الاجتماعي إنتاج محتوى قادر على اجتذاب مستخدمين آخرين أكثر اختلافا منهم ثقافيا واجتماعيا. وبالتالي فإن دينامية توسيع الروابط، هذه، التي تهيمن حاليا على مستوى تطوير مواقع التواصل الاجتماعي تمزج بشكل قوي، دائما، بين الأصدقاء الحقيقيين والأصدقاء المفيدين والأصدقاء المهمين. ومن ثم فهي تجمع كذلك بين المنطق الانتهازي والأشكال الأخرى الأكثر إلحاحا للحياة الاجتماعية. (Cardon, 2011, P 144)

ولكن يمكن القول إن هذا الاقتصاد العلائقي، حسب تعبير كاردون Cardon، يفرض أيضا العديد من التحديات: أولا، تحديات تدخل في منطق حسابي على مستوى العلاقات الاجتماعية حيث يتم التسابق من أجل جمع أكبر عدد من الأصدقاء، صناعة صورة إيجابية عن الذات، الاستخدام الانتهازي للأصدقاء الرقميين، كما يعزز أيضا منطق السمعة الذي يفاقم التفاوتات الاجتماعية والثقافية بين أولئك الذين يتمكنون من بناء شبكة واسعة وغير متجانسة من المعارف وأولئك الذين لا يزالون منغلقين على ذواتهم في حيز علائقي صغير ومتجانس لا يضم سوى الأشخاص المقربين. (Cardon, 2011, P 145)"وفي كل الأحوال هناك التمثل أو التمسرح بإظهار الأدوار الشخصية للهويات المختلفة في الفضاء الافتراضي الإلكتروني خاصة في مثل غرف الدردشة، حيث تظهر فسحة أكثر للتمثل والتمسرح الرقمي، فهي وسيلة توفر إمكان التفاعل النصي وربما الرسومي آنيا." (رحومة، 2008م، ص 137)

"كما أن الإنسان لا يبرز بشكل أفضل وأقرب إلى الحقيقة إلا حين يكون متحررا من جميع أشكال القواعد، ولا يستجيب إلا لقواعده هو نفسه." (رحومة، 2008م، ص 132) وهذا ما توفره مواقع التواصل الاجتماعي لكل مستخدم، إنها حرية التصرف ولو في الظاهر فقط.

الإطار النظري:

من الواضح جدا أن هناك اهتماما متزايدا، مع بداية الألفية الثالثة، بمختلف أشكال المراقبة الرقمية والرصد والتعقب وجمع المعلومات. يمكن تفسير هذا التوجه الجديد من خلال اللفظ اليوناني "بانوبتيكون Panopticon"، هذا اللفظ الذي يتكون من كلمتين: بان Pan وتعني "كلي" و أوبتكون Opticon وتعني

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد الخامس – العدد الثالث – البحث العاشر (ص: 237 - 250)
15 – حزيران – 2020 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

"الرؤية" أي ما معناه الرؤية الكلية أو الرؤية الشاملة. اشتهر هذا التصور من قبل الفيلسوف والقانوني البريطاني جيريمي بنثهام Jeremy Bentham (1748-1832)، فقد كان البانوبتيكون في الأصل اسما يطلق على نوع من السجون ولكنه أصبح يدل، فيما بعد، على الرغبة في رؤية كل شيء وتسجيله. (Bozovic, 1995)

من المعروف أن جيريمي بنثهام هو الأب المؤسس للنظرية الأخلاقية للنفعية، وأنه يجب أن يُفهمالبانوبتيكونPanopticon الذي صُمم أواخر القرن الثامن عشر في ضوء هذه النظرية. وهو نوع من السجون كما أشرنا إلى ذلك سابقا، ويعرف أيضا باسم "منزل التفتيش" أو "منزل المراقبة"، ويسمح هذا النوع من السجون بمراقبة جميع السجناء دون علمهم. حيث يهدف المبدأ الأساسي للنفعية إلى تقييم السلوك الأخلاقي انطلاقا من فائدته، أي أن تصميمه يسهل الرصد والمراقبة الفعالين استعانة بحد أدنى من الموارد الإنسانية. وبالتالي فإن الهدف هو المعاقبة الفعالة، ولكن دون معاناة إنسانية لا مبرر لها. (Albrechtslund, Ohrstrom, al, 2007, p 110)

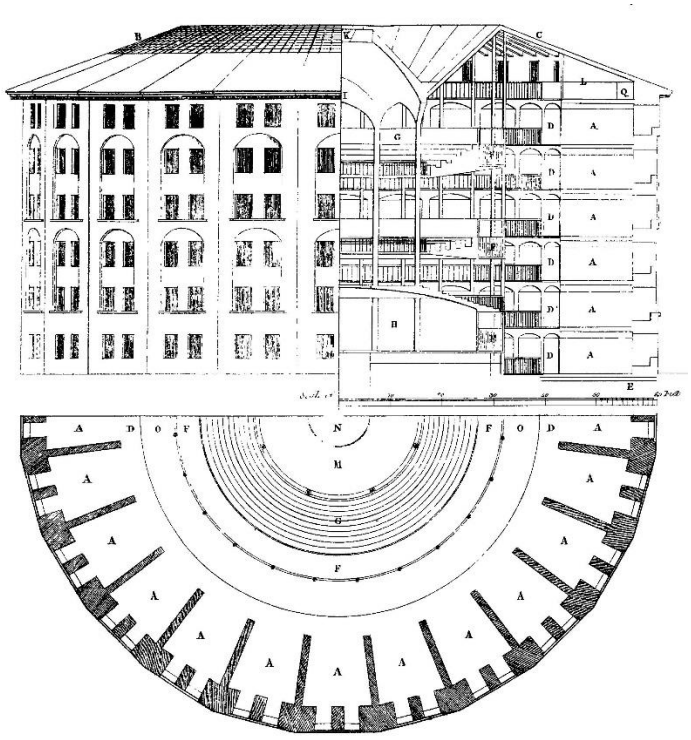

رسم توضيحي1 المخطط الأولي للبانوبتيكون لجيرمي بينثام في عام 1791.
(google.com)

ففي أعقاب تكنولوجيات المراقبة الجديدة والقلق بشأن آثارها على الفرد والمجتمع ككل، أصبحت دراسات المراقبة مجالا واسعا من مجالات البحث، حيث قدمت فكرة البانوبتيكون إطارًا نظريا ومجازيًا يمكن من خلاله مناقشة المراقبة في مجموعة واسعة من السياقات (Idem, p 110) الأمر الذي اعتمدنا عليه بدورنا في هذه الورقة التحليلية النقدية.

ومنه نستطيع أن نحدد خمسة خصائص لتصور المراقبة "البناوبتكون" المتمثلة فيما يلي والتي يمكن إسقاطها على شبكة الأنترنيت ومواقع التواصل الاجتماعي:

1. لا يمكن رؤية القائم بالمُراقِبة من مكان الشخص المرَاقَبِ.
2. الشخص المراقب على وعي تام بأنه يخضع للمراقبة.
3. خاصية المباشرة والبساطة في عملية المراقبة، ما يعني أنه من الممكن أن تكون معظم وظائف المراقبة آلية.
4. المراقبة ليست مرتبطة بشخص معين لأن هوية القائم بالمراقبة ليست مهمة في التصور البانوبتي. فالطبيعة المجهولة للقائم بالمراقبة تبعث على بعد ديمقراطي في هذا التصور طالما يستطيع أي شخص القيام بعملية المراقبة.
5. يمكن أن تكون المراقبة البانوبتية مفيدة جدا للبحث في سلوك الإنسان، لأنها تسمح بجمع البيانات بصورة منتظمة عن حياته اليومية. (Idem, p 113)

الأنترنيت ومبدأ المراقبة:

في مجتمعنا المعاصر الرقمي، تبدو هذه الرغبة قوية جدا وجامحة، حيث ترغب جميع أنواع الشركات والمنظمات والمؤسسات في تخزين بيانات عن أعضائها أو عملائها أو حتى مرضاها (في حال المستشفيات) وما إلى ذلك. تستخدم هذه البيانات المُجَمَّعَة في بعض الأحيان لأغراض غير الأغراض التي كانت مقصودة لها في الأصل. اليوم، تستخدم نظم المراقبة والحواسيب لرصد وتعقب وتتبع الناس لأغراض متنوعة-مثل تيسير عملية التعلم أو تسهيل العمل اليومي، أو لأهداف تجارية أو لأسباب أمنية محضة وأخرى. (Albrechtslund, Ohrstrom, Hasle, Albretsen, 2007, p 109)

منذ البدايات الأولى للمراقبة المعلوماتية، أو ما يطلق عليه أيضا مراقبة البيانات، خصوصا في الجزء الأخير من القرن العشرين، شهدنا ارتفاعا على مستوى ممارسات المراقبة في الحياة اليومية. اليوم، باعتبارنا مستهلكين، رقميين، فنحن مراقبون في المنزل، في العمل وفي كل مكان. إن التكنولوجيات الحالية أو التي هي في طور التصميم والتصنيع مثل أجهزة التلفاز الذكية، الحواسيب المحمولة، الهواتف الذكية.. تساهم بشكل كبير وفي بعض الأحيان بشكل مخيف في تدفق وتداول المعلومات ذات الطابع الشخصي في فضاءات عامة. وقد أدت هذه التطورات، إلى ما يراه البعض، تراجعا في الحقوق والحريات المدنية. وقد ظهرت العديد من الدراسات حول هذه المسألة.(Idem, pp 109-110)

لا بد أن نشير هنا إلى أن بنثهام قد فشل في إقناع المؤسسة السياسية في تبني هذا التصور، ذلك أن القرار الحاسم الذي أدى إلى رفض تصوره لم يكن بسب تصميم السجن في حد ذاته ولم يكن أيضا بسبب أفكاره النفعية، بل بسبب الجزء الآخر من المشروع والمتعلق بفتح البانوبتيكون في وجه المقاولين من القطاع الخاص. أي أنه تَصَورَ السجن كمؤسسة خاصة ربحية مستفيدا بذلك من عمل السجناء. وكان أيضا بنثهام هو نفسه أول من رغب بالقيام بذلك. ومنه فإن العنصر الربحي "المالي" في المشروع هو ما أدى إلى رفضه تماما، واعْتبِرَ الربح التجاري من إدارة السجون غير لائق بتاتا، وكان يُفَضَّلُ، آنذاك، أن تحتفظ البيروقراطية بكل من السلطة والرقابة على العمل، وأنه لا ينبغي للسجون أن تستجيب لأية معايير اقتصادية. وعلى الرغم من أن مشروعه قوبل بالرفض، فإن فكرته حول سجن البانوبتيكون، هذا، كانت مؤثرة للغاية. ويرجع ذلك، في جملة الأمور، إلى تطبيقه الفعال على معظم أنواع المؤسسات التي يحتاج فيها الناس إلى الرصد والمراقبة. (Idem)

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد الخامس – العدد الثالث – البحث العاشر (ص: 237 - 250)
15 – حزيران – 2020 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

في الاتجاه نفسه يرى ميشيل فوكو أن "هذا التجهيز المكشافي (البانوبتي) يُعِدُّ وحدات زمنية لا نهائية تسمح بالرؤية اللامنقطعة وبالتعرف الآني (...)، إن الرؤية حسب تعبيره هي شَرَكٌ." (فوكو، 1990، ص 210) وبالتالي "فالجمهور، ككتلة متراصة، ومجال مبادلات متعدد سياقات تواصلية واجتماعية، وذوات فردية تنصهر في قالب واحد، وكأنه جماعي، مَلغِيٌ لصالح مجموعة من الذوات الفردية المتفرقة. (...) فقد استُبدِلَت الكتلة بكثرة يمكن تعدادها وهذا ما يحيلنا على الهوية العددية في مواقع التواصل الاجتماعي والسيطرة عليها". (نفسه)

إن المراقبة بمعناها العام هي توفير المعلومات، أو كما يتم تداوله في مصالح الشرطة والأمن: "الاستخبار أو الاستعلام"، أي المعرفة التي يمكن أن تتراكم حول الأفراد والجماعات والمؤسسات والكيانات الاعتبارية. هذه الوظيفة لا يمكن فصلها عن تأثير آخر يتمثل في توجيه السلوكات، أو تعديلها، أو حتى تصحيحها وتصويبها من خلال تأثير تصحيح النظرة إلى الأشياء، سواء كانت حقيقية أو افتراضية، حول الأفراد، بناء على تأثير المعطيات التي يمكن أن تتراكم عنهم. وبالتالي كانت فكرة بنثهام بمثابة مرحلة مهمة في تحديث المجتمعات التي أصبحت شفافة، إن صح التعبير، هذه الأخيرة التي تتكون من أفراد مرئيين يمكن تحديدهم، يمكن عدهم، يمكن تصنيفهم والتعرف إليهم عن قرب من خلال العلاقات والتحركات القابلة للملاحظة والتقييم وكذا الحكم عليها أيضا. (Laval, 2012/2, p 49)

في السياق ذاته، نلاحظ بشكل واضح أن المراقبة تسير في مسار ثابت من أجل دمقرطتها على نطاق واسع بسبب تضاعف عدد نقط الاتصال بالأنترنيت وكذا نقط استقبال الصور (كاميرات المراقبة). كما تتيح شبكة الأنترنيت إمكانية المراقبة اللامركزية مما يحول المجتمع إلى فضاء مفتوح للمراقبة الدائمة والمتبادلة. وهذا مجرد جانب واحد من رقمنة المراقبة، أما الجانب الآخر فيرتكز على مبدأ استمرارية المراقبة عبر الزمن حيث يتحول الأمر إلى نوع من التتبع/التعقب (tracker) لسلوكيات الأفراد عن طريق أدوات تسمح بمتابعة مساراتهم وتحركاتهم اعتمادا على الآثار التي يخلفونها وراءهم في مختلف الأماكن التي يزورونها واقعيا ورقميا. (Idem)

لقد تم تطوير شبكة الأنترنيت بطريقة يتم من خلالها تراكم المعلومات حول الأفراد (الملفات الشخصية) مستخدمي الأنترنيت، وذلك بالاعتماد على عنوان IP[1] Internet Protocol الخاص بكل حاسوب أو هاتف ذكي حيث يتم تسجيل جميع أنواع زيارات المواقع الإلكترونية وتخزينها وحفظها بواسطة الخوادم (les serveurs) أو عن طريق محركات البحث مثل غُوغلْ وِبينْ (Moteurs de recherche: Google, Bing) لمدة سنة واحدة على الأقل. كما أنه من المعلوم أيضا في مجال المعلوميات أن الولوج إلى المواقع الإلكترونية أو تحميل البرمجيات المجانية هي فرصة لاستعادة ملفات تعريف الارتباط أو ما يطلق عليها الكوكيز(cookies) وغيرها من "الجواسيس الافتراضية" (mouchards virtuels) التي تغذي قواعد البيانات التجارية وغير التجارية.

في السياق ذاته، يشير رحومة إلى أنه " من ضمن آخر التطورات التي تمس طريقة استعمال شبكة الأنترنيت، هو أن ملامح وجوهنا وملامس أصابعنا وحركات أجسامنا وجلوسنا أو وقوفنا أو مسيرنا، ونحن نتعامل مع صفحات الأنترنيت ومجتمعاتنا الرقمية المتنوعة، توشك الآن أن تكون مرصودة تماما." (2008م، ص 134) ليس هذا فقط، بل وقد أصبح من الممكن بالنسبة للشركات المتخصصة في جمع البيانات من أن تتعرف على المستهلكين بدقة كبيرة تصل إلى مستوى تحديد كل مستهلك منهم على حدة، أي الخصائص التي يتميز بها كل فرد عن الآخر، وذلك عن طريق عملية جمع البيانات المستمرة والتي تشمل مختلف الحالات المعيشة اليومية والممارسات التي

[1]عنوان آي بي عنوان بروتوكول الأنترنيت (بالإنجليزية: IP address) هو المعرف الرقمي لأي جهاز (حاسوب، هاتف محمول، آلة طابعة، موجه) مرتبط بشبكة معلوماتية تعمل بحزمة بروتوكولات الإنترنت، سواء أكانت شبكة محلية أو شبكة الإنترنت العالمية. ويقابل عنوان الآي بي مثلا في شبكات الهاتف رقم الهاتف.

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد الخامس – العدد الثالث – البحث العاشر (ص: 237 - 250)
15 – حزيران – 2020 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

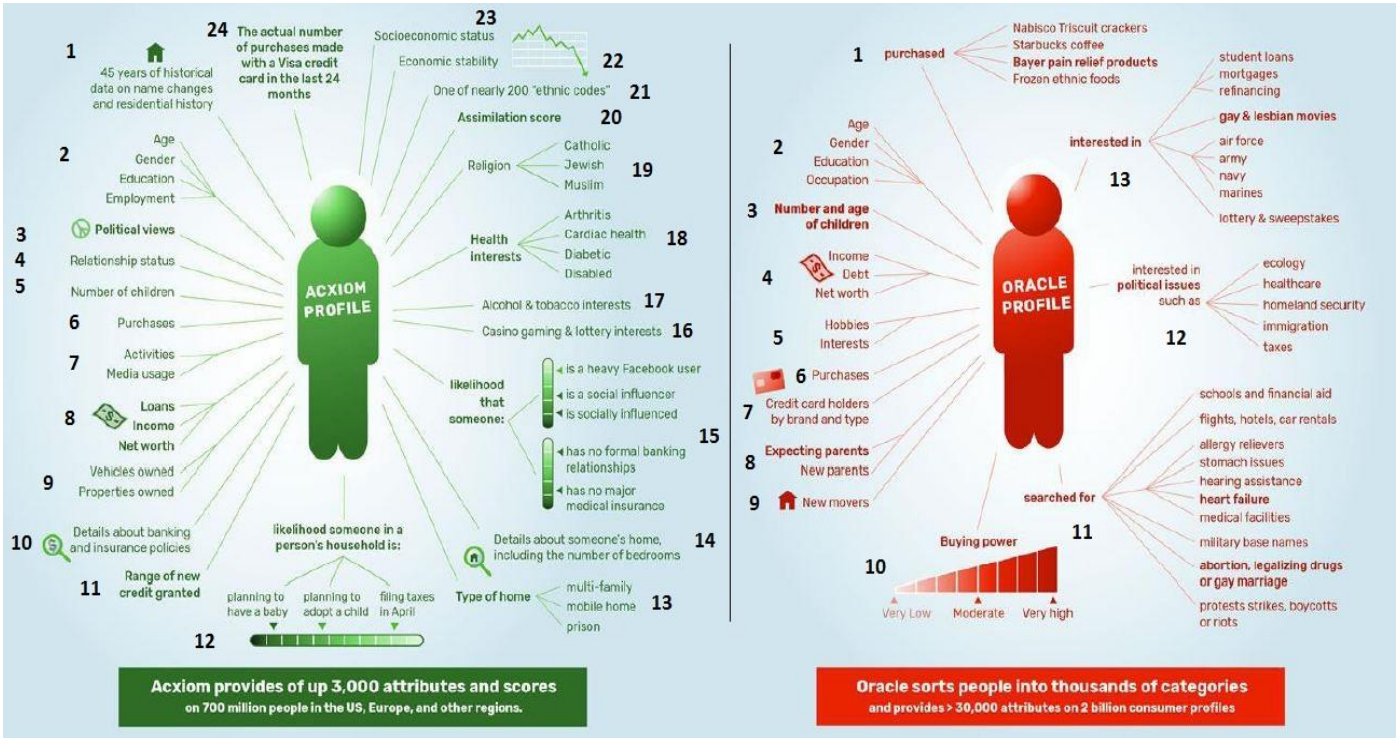

يقوم بها الأفراد. (Christl, 2017/a, p 67) وفيما يلي أمثلة عن طبيعة البيانات التي يجمعها كل من المتعقبين أكسيوم Acxiom وأوراكل Oracle حول الأفراد:

رسم توضيحي2 . أمثلة عن طبيعة بيانات المستهلكين التي يجمعها كل من أكسيوم Acxiom وأوراكل Oracle (Christl, 2017, P 63)

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد الخامس – العدد الثالث – البحث العاشر (ص: 237 - 250)
15 – حزيران – 2020 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

جدول 1: أمثلة عن طبيعة بيانات المستهلكين التي يجمعها كل من أكسيوم Acxiom وأوراكل Oracle.

المتعقب أكسيوم Acxiom		المتعقب أوراكل Oracle	
1. 45 عاما من البيانات التاريخية حول تغيرات الأسماء وتاريخ الإقامة السكنية. 2. العمر، الجنس، التعليم، الوظيفة. 3. وجهات النظر السياسية. 4. نوعية العلاقات. 5. عدد الأطفال. 6. المشتريات. 7. الأنشطة، استعمالات الوسائط (الميديا) 8. القروض، الدخل، صافي القيمة. 9. ممتلكات (سيارات، عقارات). 10. تفاصيل حول الخدمات البنكية، وسياسات التأمين. 11. نطاق الائتمانات الممنوحة على الديون. 12. إمكانية استقبال شخص آخر في المنزل. 13. نوع السكن. 14. تفاصيل حول طبيعة السكن.	15. معطيات حول الشخص: هل يستعمل الفيسبوك؟ هل هو مؤثر اجتماعيا؟ هل يتأثر اجتماعيا؟ 16. هل لديه اهتمامات بلعب القمر واليانصيب؟ 17. هل يتعاطى الكحوليات، مواد التبغ؟ 18. الحالة الصحية والمضية. 19. الديانة المعتنقة: الإسلام، الكاثوليكية، اليهودية... 20. معدل الاستيعاب. 21. واحد من بين 200 رمز عرقي. 22. الاستقرار الاقتصادي. 23. المكانة الاجتماعية والاقتصادية 24. العدد الفعلي للمشتريات التي تم شراؤها باستخدام بطاقة الائتمان فيزا Visa card خلال 24 شهرا الأخيرة.	1. ما يتم اقتناؤه. 2. السن، الجنس، التعليم، العمل. 3. عدد الأطفال وأعمارهم. 4. الدخل، الدين، صافي القيمة. 5. الهوايات والاهتمامات. 6. المشتريات. 7. التعرف على نوع بطاقة الائتمان البنكية وعلامتها التجارية. 8. ترقب إنجاب أطفال أول مرة، أو إنجاب الأطفال مرة أخرى. 9. الانتقال إلى سكن جديد.	10. القدرة الشرائية. 11. أنواع البحوث التي يتم إجراؤها: مدارس، إعانات مالية، كراء السيارات، فنادق، رحلات جوية وجميع أنواع البحوث الأخرى... 12. الاهتمام بقضايا سياسية مثل: الإيكولوجيا، الرعاية الصحية، أمن الوطن، الضرائب. 13. مهتم بـ: القروض الطلابية، الرهن، إعادة التمويل، مشاهدة الأفلام الإباحية الشاذة، القوات الجوية، الجيش، القوات البحرية، مشاة البحرية، اليانصيب

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد الخامس – العدد الثالث – البحث العاشر (ص: 237 - 250)
15 – حزيران – 2020 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

مواقع التواصل الاجتماعي ومبدأ المراقبة:

تعتبر البيانات المتعلقة بمستخدمي مواقع التواصل الاجتماعي هي مصدر ربح هذه الأخيرة حيث يستخدم موقع الفيسبوك ما لا يقل عن 52000 مؤشرا لتحليل الشخصية من أجل فرز وترتيب وتصنيف مستخدميه البالغ عددهم حوالي 2.498 مليار حسب آخر الإحصاءات. (Statista, 2020) بمعنى أن هذه المنصات التواصلية الرقمية تقوم بتحليل كل من الرسائل الخاصة والإعجابات والمشاركات وشبكة الأصدقاء والصور والتحركات وجميع أنواع السلوك الأخرى، بالإضافة إلى ذلك، يقوم موقع فيسبوك بشراء معلومات تتعلق بمستخدميه من شركات أخرى، شركاتٌ تقوم بالعمل نفسه، كما عقد شراكة سنة 2013 مع أربعة من أكبر سماسرة البيانات على الأنترنيت وهم: أكسيوم Acxiom، إبسيلون Epsilon، داتا لوجيكس Datalogix وبلوكاي BlueKai. (Makery, 2017)

إن المسألة في نظرنا تتمثل في جعل الأشخاص، رواد الأنترنيت، يتفاعلون ويمارسون سلوكياتهم بشكل عفوي حتى إذا اعتادوا على جرعة الحرية، تلك التي يمنحها لهم الأنترنيت بصفة عامة ومواقع التواصل الاجتماعي بصفة خاصة في التعبير عن الذات واستعراض مجمل خصائصها النفسية والمعرفية والاجتماعي والثقافية، جُعِلَ تصنيفهم ومعاقبة بعضهم بلغة فوكو وبنثهام لارتكابهم أفعال غير مرغوب فيها من قبل السلطة التي تبقى مجهولة في بعض الأحيان حتى يَعتبر الباقي منهم فيخضعون لنوع من الرقابة الذاتية بشكل قبلي على جميع ممارساتهم، هذه الأخيرة التي أتت نتيجة لمراقبة أولية، مراقبة سلطة التكنولوجيا: أي مالكوا الأنترنيت، مالكوا مواقع التواصل الاجتماعي. هذا هو الانضباط (المستهلك المنضبط) الذي أسس له بنثهام في تصوره لمبدأ المراقبة البانوبتي.

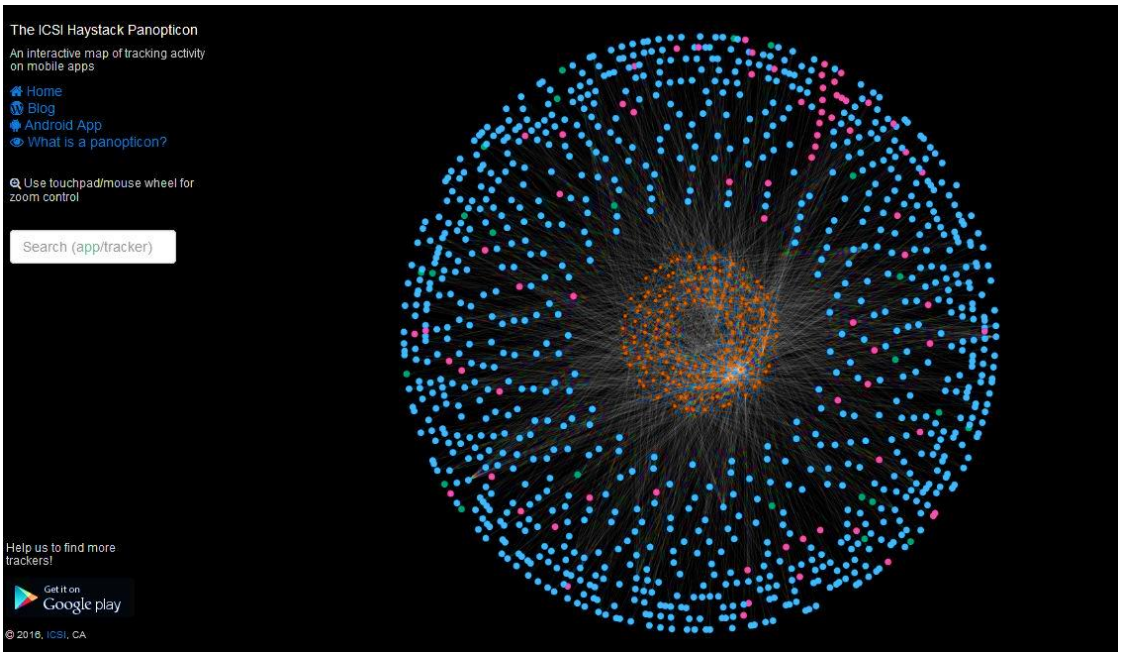

رسم توضيحي3 صورة مقتطفة من خريطة تفاعلية لنشاط تعقب يربط بين 153 تطبيق وبرنامج تعقب و1500 تطبيق للهواتف الذكية على الأنترنيت.
(https://www.haystack.mobi/panopticon/index.html)

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد الخامس – العدد الثالث – البحث العاشر (ص: 237 - 250)
15 – حزيران – 2020 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

مفتاح الرسوم التوضيحية:

ICSI Haystack Panopticon هي خريطة تفاعلية تسلط الضوء على برامج ونظم تعقب تطبيقات الأندرويد[2] Android التابعة لجهات خارجية مثل خدمات تحليل المعطيات والشبكات الإعلانية. يتم إنشاء الخريطة باستخدام بيانات مجهولة المصدر يتم جمعها عبر مصادر خارجية تتمثل في مستخدمي تطبيق ICSI Haystack الخاص بنظام Android. ويحتوي ICSI Haystack Panopticon على سجلات لأكثر من 1500 تطبيق أندرويد من بينها تطبيقات كل من مواقع التواصل الاجتماعي: فيسبوك Facebook، تويتر Twitter، اللنكد إنLinked In، وقد كشف تحليل تطبيق ICSI Haystack أن سبعين في المئة (70%) من التطبيقات المرصودة تتصل على الأقل بخدمة تعقب واحدة. في حين يتصل جزء كبير من التطبيقات بأكثر من عشر (10) خدمات تَعقب في وقت واحد، كما أنه من الملاحظ أيضا أن هذه السلطة، إن صح التعبير، تتوزع على عدد قليل من المنظمات والشركات التي تهيمن على هذا النظام الاقتصادي للبيانات الضخمة. فمثلا نجد كلا من المتتبعين Crashlytics وFlurry تملكهما شركة ياهو Yahoo. نجد أيضا أن شركة غوغل Google تملك كلا من برامج التعقب: googleadservices، googlesyndication، googletagmanager، google-analytics. تمتلك كل من الشركات: أمازون، فيسبوك وتويتر العديد من نظم التعقب. لكن، المثير للاهتمام هو أن العديد من خدمات التتبع هذه لا تكتفي فقط بالتعقب والتجسس على مستوى تطبيقات الهاتف الذكي ولكن أيضا على مستوى متصفح[3] الأنترنيت Web browser. (Vallina-Rodriguez, 2016) وفيما يلي صور مقتطفة من خريطة تفاعلية لنشاط التعقب على كل من تطبيقات الهاتف لمواقع التواصل الاجتماعي: فيسبوك، تويتر واللنكد إن.

[2] الأندرويد Android هو نظام تشغيل تمّ تطويره من قبل جوجل مجاني ومفتوح المصدر يُبنى على نواة لينكس، صمّم للأجهزة ذات شاشات اللمس مثل الحواسب اللوحية، والهواتف الذكيّة، ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ واجهة مستخدم أندرويد تستند إلى المعالجة المباشرة التي تستخدم الإيماءات اللمسية التي تتوافق إلى حد كبير مع الحركات الواقعية، مثل المسح، والنقر، وضمّ الأصابع للتعامل مع الأشياء على الشاشة.

[3] متصفح الأنترنيت هو برنامج حاسوبي يتيح للمستخدم استعراض النصوص والصور والملفات وبعض المحتويات الأخرى المختلفة، وهذه المحتويات تكون في الغالب مخزنة في مزود (خادم) إنترنت وتعرض على شكل صفحة في موقع على شبكة الإنترنت أو في شبكات محلية أخرى. ويطلق عليه أيضا اسم المستعرض أو المبحر.

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد الخامس – العدد الثالث – البحث العاشر (ص: 237 - 250)
15 – حزيران – 2020 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

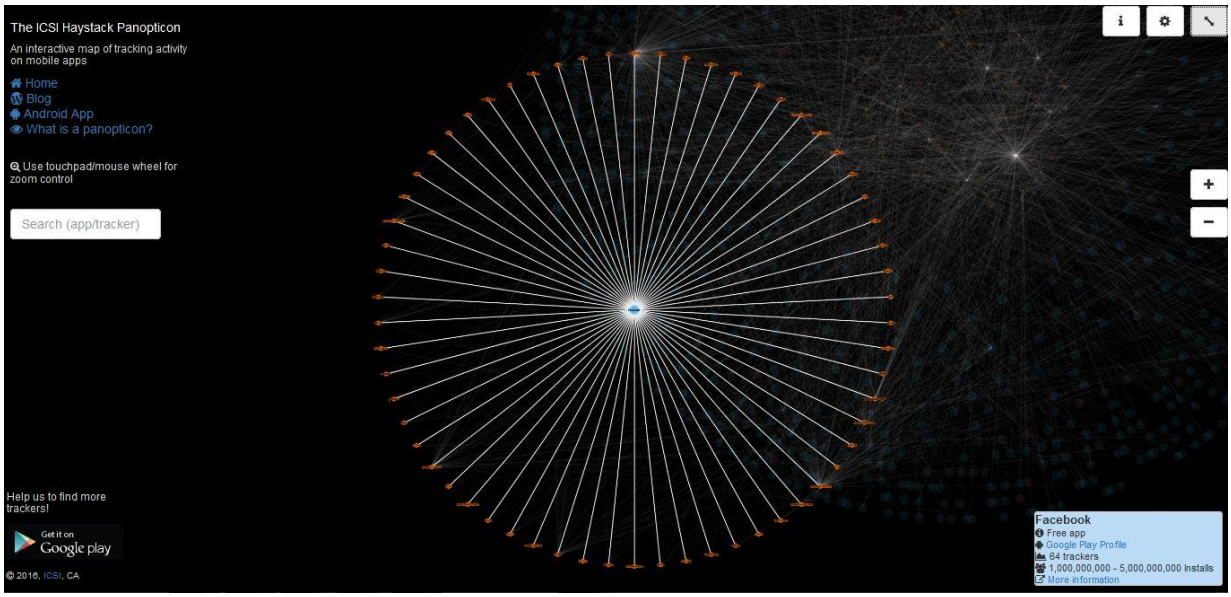

رسم توضيحي 4: صورة مقتطفة من خريطة تفاعلية لنشاط التعقب على تطبيق موقع فيسبوك للهواتف الذكية.

جدول 2 تطبيقات التعقب المتصلة بتطبيق فيسبوك على الأنترنيت.

التطبيق	تطبيقات أو برامج التعقب المتصلة به
تطبيق فيسبوك Facebook	Yahoo, adebe dtm, tags rvcs, ads rvr, scprecardresearch, crw dcntrl, nr-data, rpxnow, adroll, smaato, advertising, fyre, brightcove, omtrdc, mathtag, 2mdn, facebook (tracker), adadvisor, M314, medialytics, tubemogul, new relic, mookie1, amazon-adsystem, adlooxtracking, doubleclick, nanigans, criteo, opmtimizely, voicefive, bluekai, turn, nexage, iperceptions, livefyre, googletagmanager, googleadservices, addthis, llnwd, googlesyndication, googletagservices, serving-sys, dotomi, adform, flashtalking, pointroll, adnxs, skimresources, demdex, taboola, twitter, rubiconproject, betard, openx, taboolasyndication, tapad, google-analytics, adition, gigya, pubmatic, moatads, adsymptotic,

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد الخامس – العدد الثالث – البحث العاشر (ص: 237 - 250)
15 – حزيران – 2020 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

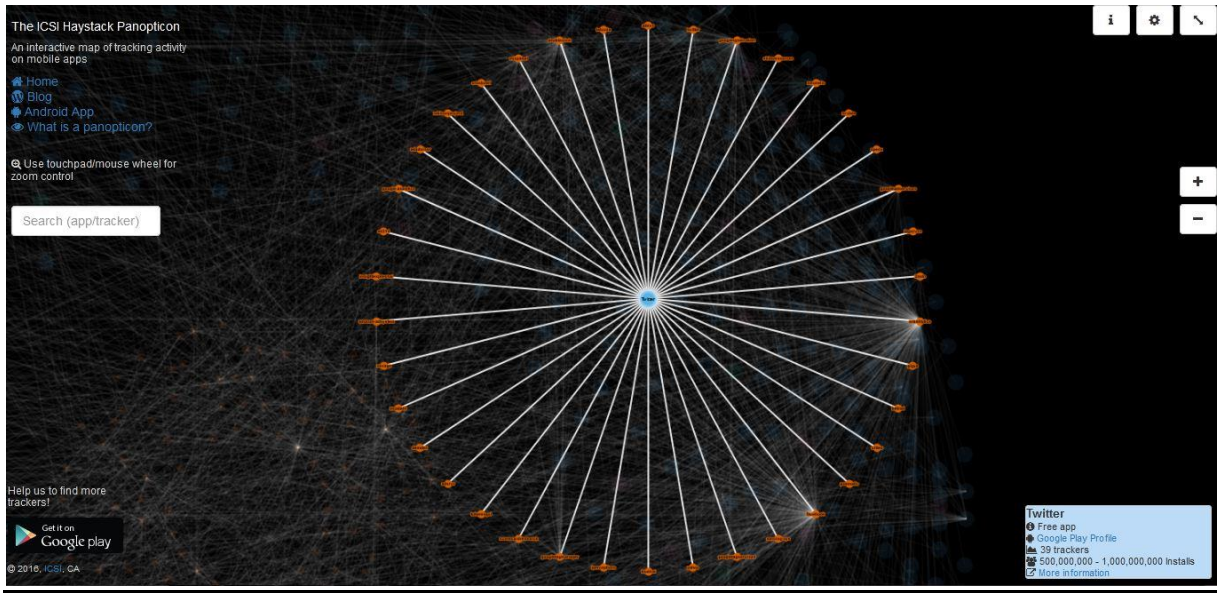

رسم توضيحي 5: صورة مقتطفة من خريطة تفاعلية لنشاط التعقب على تطبيق موقع تويتر للهواتف الذكية.

جدول 3 تطبيقات التعقب المتصلة بتطبيق تويتر على الأنترنيت.

التطبيق	تطبيقات أو برامج التعقب المتصلة به
تويتر Twitter	Twitter (tracker), googlesynication, skimresources, newrelic,nr-data, opnex, googlesadservices, tags rvcs, 2mdn, crashlytics, gigya, betrad, criteo, pubmatic, facebook, sevring-sys, googletagservices, yahoo, bluekai, iperception, googletagmanager, scorcardresearch, tubemogul, adsrvr, demdex, moatads, nexage, amazon-adsystem, insghtexpressai, M314, google-analytics, adadvisor, rubiconproject, crwdcntrl, mixpanel, doubleclick, taboola, adnxs.

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد الخامس – العدد الثالث – البحث العاشر (ص: 237 - 250)
15 – حزيران – 2020 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

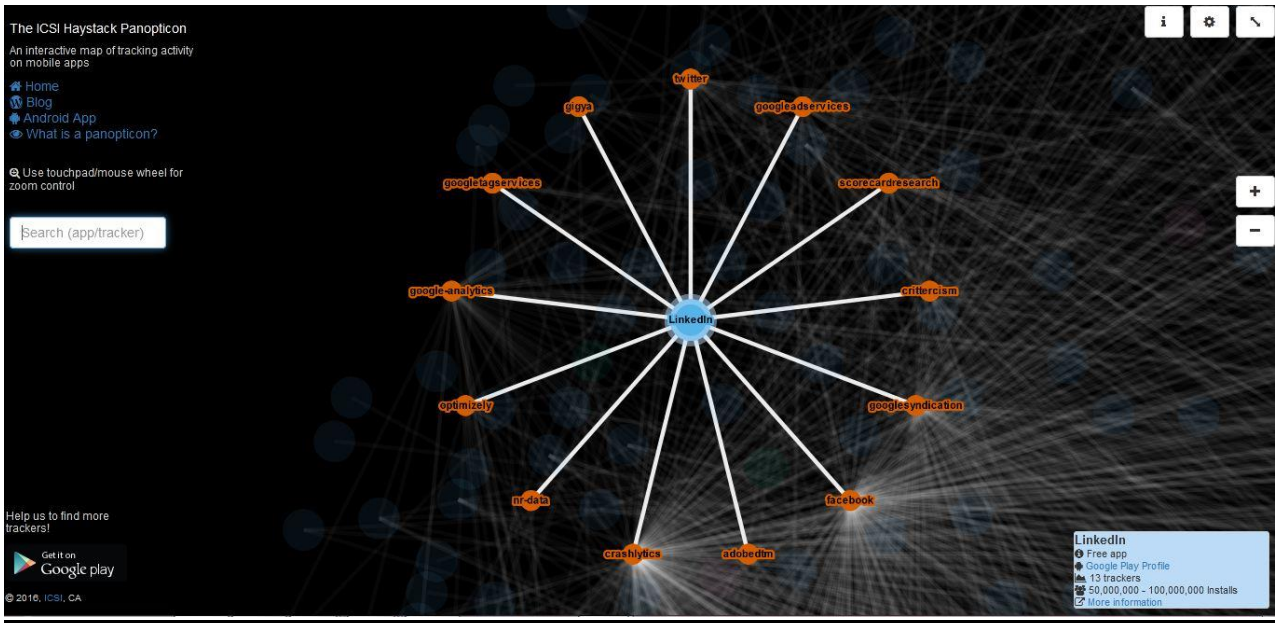

رسم توضيحي 6: صورة مقتطفة من خريطة تفاعلية لنشاط التعقب على تطبيق موقع اللنكد إن للهواتف الذكية.

جدول 4 تطبيقات التعقب المتصلة بتطبيق اللنكد إن على الأنترنيت.

التطبيق	تطبيقات أو برامج التعقب المتصلة به
اللنكد إن Linked in	Gigya, Google tag services, google-analytics, Optimizely, nr-data, crashlytics, twitter, Facebook, google ad services, crittecism, google syndication, adobe dtm, score card research

يمكن القول إن مواقع التواصل الاجتماعي بصفة عامة والفيسبوك بصفة خاصة هي بمثابة منصات "للبث المصغر" حسب تعبير سيزار هيدالغو Cesar A. Hidalgo، وهذا يعني أنها ليست مذكرات خاصة أو نوع من الخدمات الخاصة للرسائل النصية طالما يرجع هذا إلى الهدف الأول من تصميمها حيث أن كل ما يتم نشره في الفيسبوك له قدرة الانتشار الفيروسي viral content. ففي الفيسبوك مثلا، نشارك محتوى ما مع مجموعة يمكن أن تضم عشرات الأشخاص أو الآلاف، بغض النظر عن عدد الأصدقاء لدينا، حيث يتم تمكينهم من جعل منشوراتنا تصل إلى جمهور عريض أكثر مما كنا نتوقعه عبر مشاركاتهم لها في شبكاتهم الخاصة. (2014)

ويرى سيزار هيدالغو Cesar A. Hidalgo أنه من الواجب أن نتذكر أننا نحن، مستخدمو هذه المواقع، من يقوم بإنتاج المحتوى وأنه من المهم أن نوجه أصابع الاتهام إلى أنفسنا أولا حول طبيعة وجودة المحتوى قبل توجيهها إلى التصميم التقني الذي يسمح بانتشار هذا الأخير بشكل كبير. وهذا يقودنا إلى طرح التساؤل حول الطريقة التي يقوم من خلالها الفيسبوك بفرز وتصفية وتصنيف المحتوى، حيث يعتقد الكثير من رواد هذا الأخير أنه يعرض عليهم ببساطة كل المحتوى الذي أنتجته شبكة التواصل الخاصة بهم من أصدقاء ومجموعات وصفحات، ولكن الحقيقة عكس ذلك تماما. فالفيسبوك يعتمد على خوارزمية تسمى "إدج رانك Edgerank" وهي بمثابة

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد الخامس – العدد الثالث – البحث العاشر (ص: 237 - 250)
15 – حزيران – 2020 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

منتج آلي للمحتوى، إن صح التعبير، حيث تقوم بفرز وتحديد واختيار المحتوى الذي يظهر على صفحة "آخر الأخبار" الخاص بكل مستخدم للفسيبوك. (Hidalgo, 2014)

وبالتالي فإن استخدام مواقع التواصل الاجتماعي يؤدي ضمنيا إلى شكل من أشكال الانسياق في المضامين الرقمية، فالتواصل الرقمي أصبح اليوم يخضع لمعايير تقنية ورمزية من طرف الآلة التي تعتمد على خوارزميات ونظم حسابية تفرض علينا احترام تراتبية داخلية ما قد يؤدي في النهاية إلى ما يخشاه جارون لوري Jaron Laurier حول تأسيس نوع من أنظمة التلاعب بالسلوكيات والتصرفات. (ريفيل، ترجمة بلمخبوت، 2018، ص 178)

يقول دافيد ستيل-ويل David Stilwell في هذا الصدد:

> "لا أعتقد أنه أمر سيء بالضرورة أن تستخدم البيانات الشخصية حتى في السياسة لكن الشيء المهم والحاسم هو هل تستخدمها لمساعدة الناس على اتخاذ قرارات أفضل أو أنك ستحاول التلاعب بهم من أجل اتخاذ قرارات معينة مستفيدا بذلك من بياناتهم الشخصية". (2019)

"يسجل مستعملو الأنترنيت في كثير من الأحيان مواقفهم بخيبة أمل أو بالسخرية أو التنديد خلال ممارسات المؤانسة الاعتيادية." (ريفيل، ترجمة بلمخبوت، 2018، ص 167) وبالتالي تعتبر عملية تصنيف الذات عملية نفسية طبيعية بالنسبة إلى الذات (الهوية الشخصية) سواء تعلق الأمر بتصنيف الذات مقابل ذوات أخرى تنتمي إلى الجماعة نفسها أو تصنيف الذات المنتمية إلى جماعة معينة مقابل جماعات أخرى (الهوية الجماعية). (زايد، 2006، ص 39) قد لا يهم نمط التفكير الفردي باستثناء بعض الشخصيات صاحبة التأثير بقدر ما يهم نمط التفكير الجماعي، فمواقع التواصل الاجتماعي، بعد كل ما سبق ذكره، لها الآن من القدرة التقنية ما يكفي لمعرفة طبيعة ونمط تفكير نسيج جماعي كامل لمجتمع معين. وهنا بالضبط يكمن عنصر الخطورة، أي بمجرد جمع وترتيب وتصنيف وتحليل أنماط التفكير وتحديد خصائصه التي تتمثل في الاهتمامات، التخوفات، المحفزات، المثيرات... يصبح المجتمع، أي مجتمع قابلا للاختراق والاستهداف عن طريق حملات تسويقية ممنهجة (تجارية وسياسية وثقافية ونفسية...) الهدف منها توجيه أفراده نحو تبني قناعات وبناء مواقف واتخاذ قرارات تتلاءم مع مضامين تلك الحملات الرقمية الممنهجة.

وتجدر الإشارة في هذا السياق إن أن هناك شركة تدعى "سبينر Spinner" متخصصة في التسويق الرقمي. حيث تستطيع هذه الشركة استهداف شخص بعينه بمحتوى معين ولأهداف معينة، اعتمادا على نوع من تكنولوجيا التسويق، ويكفي أن تتوفر على البريد الإلكتروني الخاص بالشخص المقصود حتى تتمكن هذه الأخيرة من إظهار الرسالة المرغوب استهدافه بها بشكل فردي.(Stilwell, 2019)

"إن السهولة التي يجري بها حاليا التدقيق في تصرفاتنا التجارية وتحليلها، وأيضا غير التجارية، تؤكد أن التكنولوجيات الرقمية لا تختزل في أدوات التحرر، بل إنها تشمل أيضا بذرة الأشكال المتجددة لتوجيه الأفراد واستهدافهم. وهذا الرصد الواسع النطاق لأفعالنا وتحركاتنا على الشبكة العنكبوتية يمتد إلى ما وراء المنطق الاقتصادي والمالي، ويلمس أيضا، ولا أحد يجهل ذلك، تصرفاتنا السياسية. إنه يقود إلى ممارسات تجسس متطورة جدا والسيطرة التي تتحدى الرؤى المثالية لمجتمع يدعى "رقمي"". (ريفيل، ترجمة بلمخبوت، 2018، ص 179)

خاتمة

بعيدا عن النسخة الأولى لمواقع التواصل الاجتماعي التي كان هدفها وقت نشأتها تواصليا، فإنها اليوم، أصبحت مُصَمَّمَة وبشكل علني وفقا لسياسة تفاعلية الهدف منها إنتاجٌ لا محدودٌ من الآثار الرقمية (ردود الأفعال، منشورات، تعليقات، صور، مشاركات...) فضلا عن تحفيز مستخدميها على التفاعل داخلها بعفوية مطلقة، بحيث كلما انخرطتَ فيها بقوة كلما اتضحتْ أكثر معالم شخصيتك. وبالتالي يمكننا القول إن العصر الرقمي الذي نعيشه الآن منحنا شكلا جديدا من أشكال التخاطب "وجها لوجه" إن صح التعبير، تواصلٌ لا يحتاج إلى وجود مادي "جسم مادي" من أجل نقل الرسائل، الأفكار، القيم، وقبل كل شيء صورة الذات. لذلك، فإن حرية التعبير التي تمنحها لك مواقع التواصل الاجتماعي هي حرية مشروطة مسبقا بالإفصاح والكشف عن هويتك بمختلف جوانبها المادية والفكرية والثقافية والاجتماعية والأهم النفسية.

المراجع المعتمدة باللغة العربية:

رحومة محمد علي. (2008) علم الاجتماع الآلي: مقاربة في علم الاجتماع العربي والاتصال عبر الحاسوب. ع 347: ص137. الكويت: عالم المعرفة.

ريفيل ريمي. ترجمة بلمخبوت سعيد. (2018). الثورة الرقمية، ثورة ثقافية؟ عالم المعرفة. ع 462. الكويت.

زايد أحمد. (2006). سيكولوجيو العلاقات بين الجماعات: قضايا في الهوية الاجتماعية وتصنيف الذات. ع 326: ص 39. الكويت: عالم المعرفة.

المراجع المعتمدة باللغتين الإنجليزية والفرنسية:

Albrechtslund A, Ohrstrom P, Hasle P F V, Albretsen J. (2007). « Surveillance, Persuasion, and Panopticon » Persuasive Technology: Second International Conference on Persuasive Technology, PERSUASIVE 2007, Palo Alto, CA, USA, April 26-27. pp.109-120. Consulté le 28/11/2019 : https://www.researchgate.net/publication/229031001_Surveillance_Persuasion_and_Panopticon?fbclid=IwAR1jv_vrAUY0Mf8N6Q2FduNxHiViBk2IhPU8elgEayk8pErdkmSZv2ez5vw

BOZOVIC. M. (1995). "Jeremy Bentham: The Panopticon writings". Verso.

Cardon D. (2011/1). « Réseaux sociaux de l'Internet ». Communications (n°88). p. 141-148.

Christl W. (2017). « Corporate surveillance in everyday life: How cmpanies collect, combine, analyse, trade, and use personal data on billions ». Craked labs, Vienna.

Hidalgo. C. A. (2014). "Refriending Facebook: Outrage over Facebook's "emotional contagion" experiment shows a general misunderstanding of what Facebook is and how it works". MIT Technology Review consult: 09/05/2020: **https://www.technologyreview.com/2014/07/03/172169/refriending-facebook/**

Statista. (2020) **https://www.statista.com/statistics/264810/number-of-monthly-active-facebook-users-worldwide/**

Stilwell. D. (2019). "Big Data Psychometrics" (conference). CSAR. Consulted: 09/05/2020 : https://www.youtube.com/watch?v=0_Fx-TGQSGg

The ICSI Haystack Panopticon : An interactive map of tracking activity on mobile apps : https://www.haystack.mobi/panopticon/index.html

Vallina-Rodriguez.N. (2016). "Exposing indirect privacy leaks on mobile apps" The ICSI Haystack Project Blog. Consulted 10/05/2020: https://haystack.mobi/wordpress/

.